

علماء ومفكرون عريشتهم

محضر الأوزر

عبدالله القرعاوي

دار الشروان للنشر والتوزيع

www.dawahmemo.com

الشَّيخْ عَبْدُ اللَّهِ الْقَرْعَاعِي

التاجر العالِم :

بدأت طلائع هذه القصة في أواخر العقد السادس من هذا القرن - الرابع عشر - وما أدرى بالضبط السبب الذي دفع الشيخ عبد الله القرعاوي إلى اختيار هذه البقعة النائية من جنوب المملكة .. ولم يفسر لي ذلك أحد من تلاميذه ومعارفه ، ولكنني أتوقع أن يكون قد إلتها في واحدة من رحلاته التي اعتادها للتجارة أو الاستطلاع . ذلك أنه كان رجلاً جواباً رحالة لا يكاد يستسيغ القرار ، وقد مكنته جولاته هذه من أن يجمع الكثير من الخبرات والمعلومات عن مختلف أنحاء هذه البقاع الممتدة ما بين حلب - شمال سوريا - وجازان - جنوب المملكة العربية - مضافة إلى مشاهداته في الهند ، حيث أقام بعض سنين في تلقي العلم . وشاء الله أن ألقاه ذات يوم في ظل الكعبة المشرفة أثناء الثالث الأخير من رمضان عام وفاته ، فوجدها فرصة صالحة لأن أسمع وأرى عن كثب الرجل الذي أحبيته كثيراً وتشوقت إليه طويلاً . ومن خلال حديثه الطبيعي جداً أدركت الكثير عن حقيقة هذه الشخصية الفطرية ، ووضعت يدي على بعض الأسرار التي بها أشرت على القلوب فتركـت فيها آثارها العميقة . ولما علم هوبيـةـ السوريـةـ جعلـ يـحدـثـنيـ عنـ بلـادـيـ وـأـخـلـاقـهاـ

وفضائلها ، ووقف شطرأً من كلامه على حلب وأسواقها وباديتها ، ولم يفته أن يطرفي بعض الأحداث التي شهدتها هناك وشارك فيها ، فإذا هو يعلم عن هذه الأشلاء من سوريا ما لم يتح لشيء أن يعلمه إلا عن طريق مثله !

كان الرجل من أهل العلم والتجارة ، ولعل أبرز صفاته ذلك الصفاء العقلي الذي به يواجه الحياة ، ويعالج ما يعترضه من مشكلاتها .. وقد وسعت تجارتة ألواناً شتى من السلع ، فأتاح له ذلك أن يتصل بأصناف العقول والأخلاق بدويتها وحضريتها على سواء .. وقد آتاه الله من حب الخير والرغبة في أهله ، إلى جانب نفاد البصيرة ، ما قربه من قلوب عارفيه والسامعين بأنبائه قبل لقائه .. حتى إذا قيضت لهم صحبته ازدادوا به إعجاباً وتأثراً .. وما أكثر ما أغتيل من تصرفات الناس بهذه المميزات النادرة ، إذ أقنعتهم بخطأ سلوكهم في ضوء الحق الذي لا يستطيع أحد له ردأ ، ولا تجد نفس منه نفرة ، ما دام فيها بقية من حب الله ورسوله .

الداعية الحكيم :

ولنتذكر هنا أن الشيخ كان أحد ثغرات المدرسة السلفية ، التي لا ترى سبيلاً لخلاص العالم الإسلامي من ويلاته المركبة إلا بالعودة إلى صفاء العقيدة ، التي يقررها كتاب الله وسنة نبيه . ومن أجل ذلك لا يستطيع السكوت على أية محدثة من البدع التي تسفلت أو تحاول التسلل إلى عبادات المسلمين .. ولكن يقتصر إلى ذلك بما ينقص الكثرين من دعوة هذه المدرسة . فهو يعرف كيف يلامس القلوب دون أن يحرحها ، فيتحقق من النجاح ما لا يحلم به الجفاوة القساة ، الذين يملكون الإخلاص والعلم ، ويفقدون الروية والتلطيف !... ولا أنسى هنا ذلك الخبر الذي كان يحدث به تلاميذه ليروضهم على الحلم والحكمة في سلوكهم لتصحيح انحرافات الناس ، إذ يقص عليهم نبأ أحد شيوخه الذي كان يتلقى عليه العلم في إحدى مدارس الهند ، فلا يمر به ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب إلا صب عليه سياط غضبه ، ثم يختتم ذلك بالتضرع إلى الله أن

ينقد الإسلام والمسلمين من شر دعوته إلى يوم الدين .. حتى ليكاد يجعل من ذلك ورده الملزوم في أعقاب كل درس !

يقول الشيخ : « ولم يكن معقولاً أن أواجه الرجل بأي اعتراض على فكرة يمتليء صدره وصدور سامعيه إيماناً بها ... لذلك عمدت إلى الحيلة ، فأخذت كتاب التوحيد تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ونزعته عنه غلافه الذي يحمل اسمه ، ثم تركته على منضدة الشيخ دون أن يعلم مصدره ... وشاء الله أن يقرأ الشيخ ذلك الكتاب ويستوعبه بدقة ، فراح يبدي به إعجابه ويسأل عن مؤلفه العظيم .. حينئذ أعلنت له الواقع ، فما كان من الرجل إلا أن قال : لقد ظلمنا هذا المصلح كثيراً ، ولا نجد كفارة لما أسلفنا إلا أن ندعوه لمقدار ما دعونا عليه !

في جازان :

وشاء الله أن يطيب للشيخ المقام في منطقة جازان ، فيحيط هناك رحله ثم لا يرفعه إلا بعد ثلاثة أو ما يقارب ذلك من السنوات السهان ، التي أكلت ما سبقها من آثار السنوات العجاف ، وتركلت للناس وراءها مثل الذي يترك الغيث في الأرض الصالحة بعد ظاماً طويلاً حرق .

لقد لمس الشيخ في تلك الأثناء الكثير من رواسب الجاهلية ، والقليل جداً من مظاهر النشاط الإسلامي ، الذي لا مندوحة عنه لمطاردتها ، ومن هنا جاءت رغبته في البقاء ، تحقيقاً لنزعته التي لا يستطيع لها مقاومة حينما رأى جهلاً أو بذلة .

ففي تلك القرية .. الواقعة على جانب من (خلَب) ذلك الوادي الرائع الخصب ، والذي يشق تهامة مغرباً باتجاه البحر الأحمر ، وجد الشيخ عبد الله نقائض تسترعى انتباذه ، وتشد به شداً إلى ملاحظاتها والتفكير في آثارها وعواقبها .. وفي أخلاق الناس غير قليل من الخير ، وأبرزها صدق المعاملة والأمانة والتعاطف الاجتماعي في داخل القبيلة ، حتى ليكاد يكون من المأثور

جداً أن الرجل إذا أراد معونة آخر بفرض يسد حاجته تواعد معه على فرصة من الليل ، حيث يسلمه إياه في معزل عن الأعين ، ويشرط عليه أن يرده إليه كذلك في مثل هذه العزلة .

ولكن إلى جانب هذه الفضائل شواد غير يسيرة أيضاً ، فالجهل هو السائد الأعم ، إذ تكاد المنطقة تخلو من أي مركز للتعليم ، اللهم إلا بعض الكتاتيب البدائية تقوم في بعض المدن ، وإلا بعض الحلقات الصغيرة التي بقيت من مخلفات المشايخ السابقين في بعض القرى المشهورة كأبي عريش وضماد وجازان .

موالد وشعوذات :

والجهل منذ كان هو المبادأة المواتية لنمو الحنفاة والتشبث بالأوهام ، والتطبيع إلى المخطوط المغيبة عن طريق أصحاب القبور !.. وكذلك كان الأمر في عرض هذه المنطقة وطولها ، إذ لا يزال هناك بقية من مخلفات القرن الذي سبق دخول الحكم السعودي الحديث .. فالباب المزور لطلب النفع ورد الضر ، والرايات النصوبية فوق الأضرحة ، ولا يجرؤ أحد على مسها ، فضلاً عن انتزاعها .. وعشرات المعضلات التي تسمم معين الإيمان الصحيح ، فتحجب ضياءه ، وتحرم النفوس من آثاره النيرة الخيرة !.. هذا إلى قلة المدركون لسيئات هذا الواقع ، وعجزهم حتى عن التفكير بأية محاولة للتصحيح .

وغير مستغرب في هذا الجو المؤنس أن يلقى الشيخ بعض الذين يحسنون تلاوة شيء من القرآن دون أن يفهموا له معنى ، ومع ذلك يسمون أنفسهم وبسمائهم الناس فقهاء ، وكل ما عندهم من « فقه » هو قراءة الموالد التي توارثوها عن أشباههم ، ثم القيام بظواهر من الشعوذة التي بها يستحوذون على ثقة العامة !..

وطبيعي أن هؤلاء « الفقهاء » كانوا يرون مصلحتهم في الإبقاء على سلطان تلك الحرافات ، لأنها الأسباب الموجبة لاستمرار استغلالهم لجهالة الناس ..

ومن هنا كان تشديدهم على تقديس قبور من يسمونهم بالأولياء ، إذ يجعلون لها مواسم دورية يستعدون لها بكل ما يمكن للأوهام في تلك القلوب .. فإذا حان موسم الزيارة هرعوا نحوها بالطبلول ، وساقوا إليها الأنعام ، حيث يقضون من كل موسم يوماً وليلة في طعام ولعب ، واختلاط لا يجد من ينكره ! .. وتبلغ هذه الاحتفالات الجاهلية قتها بالتمثيليات السحرية ، التي يقوم بأدوارها السيد - وهو من سلالة صاحب القبر - والمزود - في اعتقادهم - بالقوى الخارقة ! .. تعاونه مجموعة من العابين ، من يطلقون على أنفسهم اسم (عبد السيد) وخدمه .

تمثيليات رهيبة :

وتبدأ هذه الألاعيب عادة بالتجمع حول الشيخ السيد ، ثم تقرع الطبول ، ويأخذ المنشد الخاص بإطلاق بعض الأرجاز السوقية ، يرددتها وراءه جهور المترجين ، فإذا ما حmitt الحلقة أقبل السيد على بعض (عبداته) وضرب على ظهورهم ، فينطلقون لفوريهم إلى وسطها في ضرب من الرقص المألف في مثل هذه التجمعات ، وفي يد كل منهم سكينه المشهورة ، ثم لا يلبثون أن يعملاها في أجسادهم طعناً وتجريحاً ، فتنفجر دمائهم وتسليل على مشهد من مئات الأعين . على أنهم ما يكادون يحسون على تلك الحروق حتى يعود كل شيء إلى طبيعته ، فلا دم ولا جرح ولا أثر لشيء من هذا أو ذاك ! .. وكثيراً ما يسألون عن سر ذلك فيزعمون أن أشباحاً من الجن الذين يستخدمهم السيد هم الذين يتلبسونهم ، فيعملون ما يرونـه بأمرـ السيد ، الذي يستطيع أن يسلطـهم على من يشاء ! ..

وقد لا ي عدم هذا التزييل الجديد من يشارـهـ التذمرـ منـ هذهـ الأضالـيلـ علىـ خوفـ منـ إظهـارـهـ ، بـيدـ أنهـ لاـ يـنسـىـ أنـ يـعلـنـ رـضاـهـ عنـ التـطـورـ الجـديـدـ الـذـيـ جاءـ بهـ عـهـدـ حـكـومـةـ التـوحـيدـ ، فـعـماـ منـ سـيـءـ التـقـالـيدـ ماـ لوـ رـآهـ لـتـمزـقـ قـلـبهـ أـسـىـ

قصة ختان :

ويسأله أحدهم قائلاً : « هل سمعت أو شهدت قط إحدى عمليات الختان ، التي كان الناس يمارسونها حتى قبيل أيام الحكم السعودي ! .. ودون أن ينتظر جوابه يعمد إلى وصفها له « لكتأني أشهد خالي » ، وكان في العشرين من سنّيه ، وقد قدم إلى هذه الرحبة في موكب من الزغاريد والطبلول التي يؤذيك منظرها وسماعها .. وهنـا يتقدم الفقـي الضـحـيـة وبـيـدـه حـربـة مشـحـوذـة ، وبـعـد خطـوـاتـ من الرـقـصـ الـذـي يـظـهـرـ بـهـ قـوـتهـ ، يـقـفـ عـلـىـ هـذـاـ المـرـتفـعـ نـفـسـهـ وـمـعـهـ الخـانـنـ وـمـسـاعـدـهـ ، وـعـلـىـ مـشـهـدـ مـنـ الـجـهـوـرـ الـمـتـرـنـجـ مـنـ السـرـورـ ، يـأـخـذـ هـذـاـ بـسـلـخـ مـنـطـقـةـ الشـعـرـ بـدـءـاـ مـنـ السـرـةـ حـتـىـ يـأـتـيـ عـلـىـ غـلـافـ الذـكـرـ كـلـهـ ! .. وـعـلـىـ الـمـسـلـوـنـ الـمـسـكـيـنـ أـلـاـ يـغـمـضـ عـيـنـاـ ، وـلـاـ يـسـمـحـ لـوـجـهـ أـنـ يـحـمـلـ أـيـةـ ظـاهـرـةـ مـنـ الـضـعـفـ ، بـلـ عـلـيـهـ أـلـاـ يـنـقـطـ أـثـنـاءـ سـلـخـهـ عـنـ التـبـعـجـ بـأـمـاجـادـ الـآـبـاءـ وـالـأـخـوـالـ وـالـأـجـدـادـ ! .. وـلـيـسـ غـرـيـباـ أـنـ يـبـالـغـ فـيـ تـجـلـدـهـ حـتـىـ يـفـرـزـ حـرـبـتـهـ فـيـ ظـاهـرـ قـدـمـهـ ، لـيـتـحـقـقـ النـاظـرـوـنـ مـنـ شـجـاعـتـهـ ، فـتـكـوـنـ حـدـيـثـ الـأـلـسـنـ ، وـمـبـعـثـ التـأـسـيـ لـكـلـ مـنـ سـيـأـتـيـ دـورـهـ مـنـ الـفـتـيـانـ ! ... »

ويستمع الشـيـخـ عـبـدـ اللهـ إـلـىـ قـصـةـ الـختـانـ الـعـجـيـبـ هـذـهـ فـيـ تـأـثـرـ بـالـغـ ، وـفـيـ عـصـبـيـةـ لـاـ يـسـتـطـعـ إـخـفـاءـهـ يـسـأـلـ مـحـدـثـهـ : « أـلـمـ يـكـنـ ثـمـةـ مـنـ سـلـطـةـ تـحـولـ بـيـنـ الـمـقـىـ وـهـذـهـ الـجـرـائـمـ ؟ .. » . فـيـقـهـقـهـ الرـجـلـ ثـمـ يـقـولـ : « لـاـ تـنـسـ أـنـهـاـ سـلـطـةـ الإـدـرـيـسيـ الـذـيـ لـمـ يـسـتـطـعـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ الـقـوـمـ إـلـاـ بـإـلـغـاءـ عـقـولـهـ ، وـتـمـكـنـ الـخـرافـاتـ مـنـ قـلوـبـهـمـ ! .. ثـمـ مـاـ كـانـ لـقـوـةـ أـنـ تـحـولـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ هـذـهـ الـمـأـسـيـ لـوـلـاـ حـزمـ عـبـدـالـعـزـيزـ الـذـيـ جـعـلـ عـقـابـ الـواـحـدـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـخـتـانـيـنـ قـطـعـ الـيـمـينـ ! .. وـتـحـتـ طـائـةـ الـحـوـفـ مـنـ تـلـكـ الـعـقوـبـةـ عـادـ الـختـانـ إـلـىـ مـوـضـعـهـ مـنـ السـنـةـ ، وـإـنـ بـقـيـ مـنـ آـثارـ الـقـيـ نـتـوقـعـ زـوـاـلـهـ بـيـنـ يـوـمـ وـآـخـرـ ، ذـلـكـ الـتـجـاـزـ الـيـسـيرـ فـيـ حدـودـ الـمـقـطـوـعـ ، وـإـجـراءـ الـعـمـلـيـةـ فـيـ الـمـرـتـفـعـاتـ الـبـارـزـةـ عـلـىـ مـلـأـ مـنـ الـنـاسـ ، الـذـيـنـ يـتـجـمـعـونـ لـلـاحـتـفالـ بـهـاـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـقـرـىـ .. وـإـكـرـاهـ الـخـتـونـ أـثـنـاءـ ذـلـكـ عـلـىـ إـعـلـانـ صـرـامـتـهـ بـكـلـ الـوـسـاـلـ

المـكـنـةـ ! ..

المحتسب الجديد :

ورأى الشيخ من المتعذر عليه تغيير شيء من تلك المذاكر في مثل هذه الأوساط القبلية ما لم تكن له صفة رسمية . وأعون شيء له على ذلك أن يتحقق بهيئة الحسبة بوظيفة مطوع ، على أن يقوم بعمله في نطاق هذه الجماعات خاصة .. وهكذا صدر تعينه من قبل أمير منطقة جازان .

ولم تكن المهمة بيسيرة ، فالقبيلة التي آثر العمل في وسطها من أكبر قبائل المنطقة ، بل ربما كانت أكبرها جيئا ، قد رتب لها ثلاثة وثلاثون عريفا ، على رأسهم كبيرهم الذي يسمونه شيخ الشمل .

وببدأ عمله بالاتفاق مع رأس العرفاء هذا على افتتاح مدرسة في قريته ، يتولى هو تعليم من يلتحق بها من أبنائهم ، وفي الوقت نفسه جعل يؤمهم في المسجد ، ويكثر من المخالطة لرئيسهم وجماعته في مجالسهم ، التي لم يكن يراض عن كل ما يشاهده فيها ، وبخاصة التدخين وموضع القات .. ذلك الوباء الذي لا يكاد يفلت من شره أحد ، غنياً أو فقيراً ، حتى ليعرف الكثيرين من ضاقت بهم سبل المعيشة ، ويؤثرونها على الضرورات الأساسية ، فينفقون عليه أكثر مما ينفقون على أنفسهم وأهليهم في نطاق هذه الحاجات . ولكن ما كان ليستطيع أكثر من الموعظة ، يرسلها بين الحين والآخر .. على الرغم من يقينه التام بحرمة هذه الخبراث . بيد أن مواجهته على رقتها لم تكن لتسر معظم المقربين إلى شيخ الشمل ، فشكوه وأكثروا من شكواه ، طالبين إليه ردعه عن التدخل في شؤونهم وتقاليدهم ، التي لا يريدون لها تغييرأ أو تعديلا .. ثم بلغت المشكلة ذروتها بقدوم العيد .

مقامرة ومؤامرة :

والعيد من المناسبات الهامة لسكان هذه المنطقة ، إذ يتواافدون من قراهم الثاني ، كل فئة تتقدمها طبوها إلى المسجد . فإذا قضيت صلاة العيد استأنفوا

قرعهم وأناشيدهم البدوية الحماسية ، مزوجة بطلقات البنادق ، حتى ينتهوا إلى منزل شيخ الشمال .. وقد اختلط الحابل بالنابل ، والنساء بالرجال .

ولأول مرة يفاجأ المطوع القرعاوي بهذه المشاهد، فلم يتصور إلا أنها مقدمة لبعض تلك المهرجانات الشيطانية ، فلم يطق التحكم بأعصابه ، وإذا هو ينطلق إلى وسط المجموع حتى ينتهي إلى حملة الطبول فيخربها دون أن يجد أية مقاومة ! فكأنما كانت مباغة للقوم لم تدع لهم فرصة للكلام أو التفكير . ولكن ما أن سكتت الأصوات وزالت المفاجأة حتى رجعوا إلى أنفسهم ، وكثير اللغط ، واتجه كبارهم إلى مقر شيخهم يبلغونه سخطهم على الرجل ، الذي لم يفهموا عمله من معنى أنه عدوان على كرامتهم وتحدى قبilletهم ! .. ثم لم يلبثوا أن انتهوا إلى اتفاق تام على إصلاح الطبول ، والخروج بها عقب صلاة العصر في عرضة تردد لهم مهابتهم منها جر ذلك من العواقب !

وتسرب النبأ إلى الشيخ ، وخلا به من يشق يعقله وإخلاصه ليعلمه أن القوم
يأتقرون به ، ونصح له بآلا يتعرض لهم في هيجتهم . وبإباء ذلك لم يجد بدأً
من ترك القرية ومدرستها ، وأخذ سبيله إلى (صامته) النائمة على مبعدة عشرين
كيلاً إلى الجنوب .. ولكنه آثر ألا يأتيها مطوعاً ، بل تاجرًا صغيراً ، في
حالت صغر .

في صامتة :

وكان على الشيخ أن يوثق صلاته بأبناء صامتة ليتمكن من تحقيق أفكاره ، فكان حانوته أفضل وسائله إلى ذلك ، إذ جعله مثابة للناس ، يستقبلهم ببشاشته ، ويؤنسهم بطرائفه ، ويبيعهم حاجاتهم بأرخص الأثمان ، بل ربما بأرخص من ثمنها الأصلي ، وهو إلى ذلك لا يضيق عليهم في التسديد ، بل يعاملهم بما يناسب حال الزراع ، الذين قلما يملكون النقود في غير مواسم الجني . وبذلك استحوذ على راضهم جميعا ، بما فيهم أولئك الحرفيون الذين اختصوا دون أهل المنطقة بالاقبال على الصناعة ، وبخاصة صناعة الأواني الفخارية ، مما يسكنبر عنده

غير هؤلاء الذين رضوا ، تحت ضغط التقاليد القبلية ، أن يشكلوا طبقة منعزلة لا تندع عنها إلى ما وراء حدودها في زواج أو تعليم ، أو أي لون من ألوان المشاركة الاجتماعية !

طليعة الزحف :

وتعرف الشيخ أثناء ذلك رجلاً من أهل الخير أقعده العجز عن التجوال ، فكان له جماعة من الصحابة يتربدون عليه في أوقات فراغهم ، ينتفعون بمعلوماته ، ويستعينونه على فهم ما يشكل عليهم من أمور دينهم ، فيقرؤون القرآن ، ويطالعون في بعض كتب الفقه الشافعي . وسرعان ما التحق بهم وجعل يشار لهم في مجالسهم ، وهم لا يعلمون عن أمره سوى ما يظهر لهم من مهنته ، إلا أنه مثلهم ذو رغبة في العلم .. وقد مكن له في حلقتهم نشاطه في خدمتهم ، وإكرامه إياهم ببعض الهدايا الصغيرة بين الحين والحين ، ثم ما يرونه من اهتمامه بما يسمع من ذلك الخير .

وأتيح للشيخ مناسبات للمشاركة في تفسير بعض العبارات الفقهية بصورة لفتت انتباه القوم ، ولا سيما شيخ الحلقة الذي لاحظ في الجليس الجديد أكثر من ظاهرة ، فجعل ينحصه بالتكريم ، ويستحسن على إبداء ما لديه من العلم ليسترشدوا به ، حتى انتهى فيهم إلى المكانة التي هو أهل لها ، فرضوه مدرساً لهم ، وأقبلوا عليه يغفرون ما عنده ، وأقبل هو عليهم بكل ما يستطيع من رعاية وتوجيه وتسديد ، وكلما استوثق من قدرة أحدهم على تبليغ بعض الحقائق دفع به إلى ناحية من المنطقة « ليصحح ما التوى » ، ويقوم ما اعوج ضمن حدود طاقته ، وتحقيقاً لوظيفة المؤمن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهداية الضال ». فكان ذلك طليعة الزحف المقدس على جيوش الأوهام والانحرافات ، ذلك الزحف الذي ما زال يتسع ويعتد حتى تجاوز حدود المملكة إلى ما جاورها من اليمن .

المدرسة الأولى :

وتحرك الشيخ في خطوطه الثانية ، التي طالما خطط لها وقدر .. فعرض على الجماعة التعاون لإنشاء مدرسة أولية تستقبل الراغبين في العلم ، لتخريجهم من الجهل إلى المعرفة ، وتحرج بهم الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد الحق . وكانت الثقة به قد رسخت جذورها في قلوب تلاميذه جميعاً ، فلم يترددوا في قبول فكرته ، ولم يتلكأوا في تنفيذها ، وما هي إلا أيام حتى كانت المدرسة الأولى قائمة ففتح ذراعيها لطائفة من المتعطشين إلى العلم .. وقد بنيت على شاكلة معظم بيوت صامتة ، التي لا تعدو آنذاك هيئة الأكواخ الكبيرة من القش ، يُحبّبُك على أعمدة من الأغصان يؤتى بها من بعض الأدغال القرية ، ثم تقبّب سطوحها ، وتطيّن من الداخل بما يصونها من الحر والقر والمطر .

الجهود المشمرة :

ولم تقتصر المدرسة على الأحداث ، بل قبل فيها كل ذي رغبة في العلم منها علت سن ، إلا أن أوقاتها قسمت حسب الحاجة ، فجعل ما قبل الظهر للصغار ، وما بعد العصر للكبار .. وكان الشيخ مدرسها ومؤلف مناهجها ، ومنظم مواعيدها . ولم ينشأ أن يتناول التعليم فيها كل ما ألفه أهل المدارس الحديثة ، بل تخير من المواد ما وجد الحاجة إليه أمس ، فركز على القرآن والحديث والتوحيد والفرائض ، إلى جانب قواعد العربية من نحو وصرف ونصوص ، مع الأعمال الحسابية الأربع . وقسم هذه المواد على وفق الفصول ، فألحق بكل فصل المؤهلين له ، ثم استدعى أعضاء الجماعة الأولى وشيخهم القديم ، فاستعان بهم في تعليم الصغار ، وتولى هو تعلم هؤلاء في حرص ما بعد العصر . وكلما تهيأ منهم أحد للعمل رفع له مدرسة جديدة كهذه ، وولاه شأنها تحت إشرافه . وهكذا ، لم تمض بضع سنوات من سبعينيات القرن الرابع عشر حتى غطت مدارس الشيخ القرعاوي منطقة جازان بأسرها ، بل تجاوزتها إلى نجران وأبها وما حولها من أرجاء عسير ، حتى لم يدع قرية دون مدرسة ومعلم ، أللهم إلا

هاتيك القرية التي كانت أول منازله ، والتي حاول أن يجعل منها المنطلق الثاني لحركته ، فحالت إرادة عريفها دون رغبته ، لأنه رأى من غير المصلحة إعطاء الشيخ فرصة لإحداث أي تغيير في حياة جماعته . وبإزاره ذلك لم يجد مندوحة عن تحويل بصره إلى (وادي بيش) .

أول الفيت :

وقد تم له هذا كله بما يشبه الأعجوبة ، إذ كان كل رأسماله تلك الحماسة التي قوبلت بها نواياه الإصلاحية لدى أولئك الشباب ، الذين آمنوا بأهدافه ، فوضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، وانطلقوا يجاهدون ليلاً نهاراً لإنقاذ عباد الله من أوبئة الجهل والخرافة التي لا تدمر الأجسام ، ولكنها تحيط بالأرواح ، وتشوه الفطرة ، وتصرف الطاقات البشرية في طريق الشيطان . ولعل أول عون مادي وصل إلى الشيخ في غمرات ذلك الجهاد الصامت هو تلك الهبة التي أكرمه بها الملك عبد العزيز إعراضاً عن إعجابه بشروعاتهم ، التي نقل إليها نبأها أستاذ القرعاوي المغفور له الشيخ محمد بن ابراهيم كبير علماء المملكة ومفتياً أعلى ، وعلى الرغم من أنها لم تتتجاوز في مبدئها سبعة آلاف ريال سنوياً ، فقد كان لها أثراً هاماً وزنة أيماذك ، إذ أثارت للشيخ أن يوفر بعض المدد لأولئك المطوعين ، يستعينون به على الأقل في تنقلاتهم لخدمة الدعوة بين مختلف القرى .

اكتشاف نابفة :

وتکاثرت أعباء الشيخ تبعاً لاتساع مساحة الجهاد ، فلم يعد عمله مقتصراً على التدريس والإلقاء في نطاق صامتة وحدها ، بل وجد لزاماً عليه أن يكون على صلة تامة ، يتفقد حاجاتها ، ويراقب مسيرتها ، ويشدد عزائم القائمين عليها .

وكان الشيخ شديد الحرث على أصحاب الموهب ، لا يفتئ ينقب عنهم بين تلاميذه ، وفي أوساط الناس خارج مدارسه ، لما يتوصّم فيهم من القدرة على

مضاعفة النتائج التي يسعى إليها . وما كان أسعده يوم عثر على أحد هم في إحدى جولاتة تلك ، إذ مر ببعض الرعاة فتحول عن دابته ليتحدث إليهم ، ولاحظ منه التفاة إلى كومة من العشب فإذا عليها مصحف ! وسأل عن صاحبه ، فإذا هو غلام صغير اسمه حافظ الحكيم ، ولما أحضروه له وسمع كلامه لم يقال لك أن يفتخه برغبته في أخذه إلى صامتة لإنسانه على العلم . وسر الغلام جداً بهذه الرغبة ، ولكنها أعلن عجزه عن تحقيقها لأنه مضطرب للبقاء مع أمه التي ليس لها سواه . ولكن الشيخ لم يدعه حتى أقنعه برفاقته إلى أمه ، التي ما زال بها حتى رضيت لولدها ذلك المصير .

ولم تكتب فراسة الشيخ في ذلك الراعي ، فإذا هو في مقدمة رفاقه ، اجتهاداً وفهمًا وصلاحًا ، وقد مكنته ذكاؤه الحاد أن يتحقق من التقدم في الزمن القصير ما لا يتاح إلا للقليلين من المهووبين في الزمن الطويل ، وهذا ما ضاعف قلق الشيخ على تلميذه ، إذ لم تنتهي أمه عن المطالبة بعودته إليها ، على الرغم من كل المحاولات والترضيات التي يبذلها لإقناعه بتركه .. ولكن كان سروره كبيراً يوم نعيت إليهم ، إذ كانت مصيبة (حافظ) بوفاتها مبدأ الاستقرار في طريقه العلمي ، الذي لم يلبث أن أخرج منه واحداً من كبار النبغاء ، ومنح الشيخ عبدالله به مساعدأً أميناً قوياً في مهمته التي لا يتصاح لها سوى الأقوياء الأمانة .

سراج ينطفئ :

ولم يتتردد الشيخ في الإفادة من تلميذه النجيب الحافظ ، فأسنده إليه إدارة مركز (وادي بيش) ليحمل عنه مهمة الإشراف على مؤسساته التعليمية هناك ، وكان أمله أن يخلفه في إدارة سائر أعماله في المستقبل .

وأثبتت الحافظ صحة رأي شيخه في مواهبه ، إذ كانت كتلة من النشاط الفياض ، يدعو ويدير سرير لف . ولما نقل لإدارة أول معهد علمي أنسأته دار الإقامة في صامتة أبدى من الскفافية ما جعله أنموذجاً يحتذى . ولكن شاء الله أن ينطفئ السراج في إبان توجهه ، فوافته المنية قبل أن يبلغ أشدّه !

الملايين في خدمة الدعوة :

واستمرت دفقة النور على ذلك الطريق القويم ، يحمل مشاعلها شباب أنشئوا على حب التضحية في سبيل الله ، فلم يتظروا على جهادهم أجرأ ولا شكوراً ، وفي صمت يكاد يمحى ذكرهم عن كل سمع خارج ميادين عملهم ، قانعين بالعون اليسير الذي يتلقونه بين الحين والحين ، حتى وسع الله نعمه على الدولة القائمة بشرعيته ، فوسع معاونتها إياهم ، ثم حولتها إلى مخصصات ثابتة ، وما زالت تنمو وتكبر حتى وصلت إلى بضعة ملايين من الولايات ، وُضعت بأجعها تحت تصرف الشيخ ، الذي أحسن النهوض بعبء الأمانة فجعل لكل مدرس أجوره ، ولكل طالب مكافأته وفقاً لمسيرة المخصصات .. ولكي يضمن حماية مدارسه المشورة في عشرات القرى ، خصص لكل عريف قرية مرتبة خاصّاً يتلقاه باسم الرعاية لمدرستها ، مما كان له أحسن الأثر في نفوس هؤلاء العروفاء ، الذين منحوه تأييدهم ، وواصلوا على مساجدها ترددتهم !

الخاتمة الكريمة :

وكانت النهضة التعليمية قد أخذت بالامتداد في كل اتجاه من أنحاء المملكة ، حتى إذا بلغت طلائعها ميادين النشاط القرعاوي وجدت السبل معيبة ، والاستعداد على أنه ، ثم ما لبثت أن تساحت من يدي الشيخ رأية الكفاح ، الذي كان قد حقق أفضل النتائج الممكنة ، إذ أخرج جيلاً من صفوة شباب المملكة عقيدة وخلقاً وبدأ لا يفتر في خدمة الإسلام .

ولقد ظل الشيخ الرائد يمارس عمله في خدمة تلك الأحياء حتى أقعده المرض ، فنقل بالطائرة من جازان إلى الرياض حيث وافاه الأجل في ببرة الخامسة والسبعين من ذلك العمر المبارك ، بعد أن ترك صامتة وما حولها ناطقة بآثاره ، مخصوصة بأفكاره ، مترجمة عن سيرته بأنصره بيان وأبلغ لسان .

كتبنا هذا العرض الموجز من حياة الشيخ (رح) منذ عدة سنين ، وكان ذلك في أعقاب اجتماع به في المسجد الحرام ، ولم يكن تأليف هذا الكتاب في تقديرنا إذ ذاك ، فلما قدر الله الاتجاه إليه كان من الإنصاف لهذا الداعية ذي الأثر الكبير أن ننقل صورة عنه وعن جهاده إلى قرائه ، ومن هنا كان إثباتنا لهذه الصفحات ، وهي خالية من آرائه الشخصية .

على أن خير ما يصور أفكار القيد المجاهد ما نلمسه في ميزات خريجيه من الفضائل الخلقية ، وللرأب المتصل في خدمة الإسلام على أساس من العقيدة المصافة ..

وقد أوشك بعضهم أن يتخرج في قسم الدكتوراه من جامعة الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة ، متخصصاً في هذا الموضوع ليتولى تدريسه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .. ففي هؤلاء الذين خبرناهم وأحببناهم في الله ، ما يكفي لمعرفة الخطوط الكبيرة من مبادئه ، ذلك المصلح الإسلامي الكبير .. غفر الله له ، وجزاه عن دينه خير ما يجزي العاملين الصالحين .